القصص

من الحياة

الضحية ...

للأستاذ كامل محمود حبيب

انحسر الليل عن جبين الفجر ، والفتى لا يزال فى مجلسه يشهد ليلة تنطوى ، وفجراً يبزغ ؛ وكأن الليلة لم تكن فى فكره إلا ساعة ، وكأنه وقد جلس يرقب سير الكواكب فى أفلاكها كان ينتظر أن يقرأ فيها تتمة الرسالة التى قرأ أولى كلمة منها أول الليل ، فوجد فيها ما وجد من لذة ونشوة وسحر . لم ير فى صفحة الكواكب السيارة ، ولا فى العالم الهادىء النائم المطمئن ، إلا شيئاً كان فى خياله هو وفى خواطره . جلس لا ليقرأ حظه فى كتاب السماء ، ولكن ليؤلف كتاباً من نفسه الطروب المرحة

.... وذهب الى عمله وهو نشاط يشتعل ؛ فهو يجىء ويذهب ، ويقرأ ويكتب ، ويتكلم فيبين ، وكأنّ شيئاً فيه قد خلقه من جديد ليكون شخصا غير الذى يعرفه فى نفسه ، ويكون إنساناً سوى ذلك الذى عرفه صحابته ورفاقه . ودخل الى صديق يحدثه ، يريد أن يفضى اليه ببعض ما يفور فى نفسه ، ولكنه عاد فرأى أن ذلك الشىء الذى بعثه من جديد لم يكن إلاّ فى نفسه لنفسه ، فهو سره هو ، وهو له وحده . . . ثم رجع الى بيته ليطيل النظر الى نفسه فى المرآة يأمل أن تريه مرآته الشابّ الذى فى قلبه ، فلم ير إلاّ ما تريه المرآة كل يوم ، ولكن هندسة عقله الجديدة قد بدت على هندامه وزيّه فكان جديداً حتى فى هندامه وزيّه . أكلّ ذلك لأنه رآها أمس وجلس اليها وقال لها وقالت له . . . ؟

ومضى الفتى على طريقه ، وفتاته أمامه تنير له ما أظلم ، وتفتح له ما استغلق ، وقلبه ماض على أثرها ، وهو من وراء الاثنين : قلبه وفتاته ، طيّع منقاد

وأبعد فى السير ، فباعد بين الفتى الجديد والفتى الذى كان ، وعاد لا ينظر الى الوراء إلاّ ليرى ذلك العريش الذى جلسا تحته لأول ما قال لها وقالت له . . . وكأن عمره قد اختُصر فى هذه الأشهر القليلة ، ولكنه كان عمراً طويلاً

وخيّل الى الفتى حين اجتلى النور من وجه صاحبته ، وحين حاطه الشعاع الآسر من روحها ومن عينيها ، وحين رأى الأمل يترقرق على شفتيها من ابتسامة رقيقة ، خُيّل اليه حينذاك أنه عاش ما عاش من العمر أعمى لا يرى الحياة إلاّ مادة ؛ أما الآن فهى عنده روح من الروح ، وهى عنده شعاع يسطع فى قلبه ، فلا يزال يذكى روحه ، ويرهف حسّه ، ويشعره معنى الحياة الجميلة ، ويحبّب اليه أن يعيش عيشه مغموراً فى هذا النور الإلهى الذى ولده السالب والموجب من قلبها ومن قلبه

وتلاقيا على ميعاد . ونظر ونظرت ، فاذا عصفوران يتساقيان

وأعجبُ منه لَذَّتى ومَسَرَّتى على حين تَهشى فى المخالبِ أو تقضى
فيا سوءَ ما أبقيْتِ فى الدَّم من لظًى
وفى الفكر من كَلْمٍ وفى القلب من عضّ
أخافك فى سرى وجهرى ، ومشهدى
لديك وغَيْبى ، خوفَ أرقط مُنْقَضّ

لقد كنتِ أحلامى — إذا الليل ضمّنى ،
وكنتِ إذا ما الفجر ايقظنى — روضى
يناجيك طير فى الضلوع بلحنه
لقد عاش فى سحر ، وقد عشت فى خفض
وكنتِ على ورد الخمائل ربّةً وكان بشيرَ الفجر فى الفنن الغض
فأصبحتِ ... لا خيراً فيُرْجى ، ولا لقًى
فيُلْقى ، ولستِ من سمائى ولا أرضى

تعاميْتِ عن قلبى وزمتِ مِـيـتى وتنتظرين الحب ! انتظرى بعضى

الهوى على فنن ؛ فقال فى نفسه : « ما أتعس الانسان ! يقيد نفسه بأغلال المادة والتقاليد ، ثم يزعم أنه طليق . ليتنا مثل هذين...! » وقال لها وقالت له . وكان كلاماً لا تلفظه الشفاه : من ذا يفهم لغة الطير ، أو يسمع نجوى العاشقين عينا الى عين ؟ إن هذين الطائرين يفهمان من فلسفة الحياة أكثر مما استوعبت عقول البشر . إنهما يملكان الحرية ، وفى أيدينا وأرجلنا قيود ذهبية...!

ومالت على زهرة نضرة من أزهار الحديقة تقطفها ، ونظر الفتى فما بدت لعينيه زهرة ، بل رمزاً من شفة ، وخد ، وعطر ، وخطرة دلال . وأسرع الى صاحبته : رويدك يا فتاتى ، إن هذه الأنامل الجميلة ما خُلقت إلا لتتملى هذا الجمال وترعاه !

ولـما همـّا ليفترقا لم يقل لها : يا فتاتى التى أحب . بل قال لها : يا من حبتنى الخلود وأشعرتنى لذة السعادة على الأرض

* * *

ما أعجب ما يرى الانسان فى الحياة ! وهل يرى كل ما فيها إلا على ما رُكّبت عليه طبيعته المـادية الجامدة ؟ حتى إذا ما لمست فتاة قلبه حالت كل مادة على الأرض شيئاً إلهـياً نورانياً ، يتلألأ كما انفلق الاصباح عن ليل طويل دامس . وماذا فى الشباب إن لم يكن هذا الشباب فى القلب قبل أن يكون فى نضرة الوجه وتكتّل العضل ؟ حتى الشيخ يرده الحب فتياً ! تلك حكمة الله فى الأرض

* * *

سار الفتى على سننه ؛ وذهبت نفسه وراء فتاته ، وهى من عقلها لا تخمد العاطفة بارمى الدائم ، ولا تبعث فى نفسه السأم بالغضب المستمر . وهو من كبريائه لا يندفع اندفاع الطيش ، ولا يُقصر اقصار الملل . نفسان عُقّدتا ؛ ولكنهما عقدتا ليكون الحب فيهما عقدة ثالثة . فهى تفور ، وهو يتنزّى ولكنهما هما . أراد أن يكون صريحاً فتعقدت له ، فلما أرادت أن تكون صريحة وجدته قد تعقد

ضـلّ من يقول إن العقل والكبرياء كلاهما يذهبان برونق الهوى ، ويطفئان شعلة الحب . إنهما يجملان من الهوى هوى مركباً لا ترقى اليه العقول الصغيرة ، ومن الحب حباً معقداً . لا تبلغه العاطفة السقيمة

ثم انطلقا . . . والفتى سعيد بفتاته ، والفتاة سعيدة بفتاها فما يفترقان إلا على ميعاد ، وهما بين الميعادين كالظمآن يذكر آخر قطرة تذوقها ويرى فيها الحياة ، وينتظر أول قطرة تأتيه ليرى منها النور

على ضفة النهر ، وبين الخمائل ، وتحت ظلال الشجر ، وفى ضياء البدر ، فى صمت الطبيعة وجمالها ، طائران أغمض الدهر عنهما جفنيه ليرشفا من رحيق الحيـاة كأساً صافية ، ما كدّرها تخاصم ، ولا لوّثها عبث . عام انطوى ، فكان العمر ، وكان جمال العمر ، والصفحة البيضاء فى كتاب حياة الشاب والشابة . فما يكون جزاء هذا الحب إلا رباطاً لا تنفصم عروته ؟ وتلألأت الفكرة ، وتضاعفت سعادة العاشقين بهذا الأمل الجديد

والفتى والفتاة من أسرتين ترسفان من التقاليد فى أغلال ، وويل للحب إذا اعترضت سبيله التقاليد !

* * *

وكانت فكرة ، ثم استحالت الفكرة فاذا هى كلام ، وحار الكلام فاذا هو خطوات إلى غاية ؛ ولكن ... ولكن ما أحوج هذا السالك إلى من يرود له الطريق ! هؤلاء أهلها ، ماذا يعرفون من أمره ؟ وكيف يخطبها اليهم وماله عندهم اسم ولا رسم ؟ وهؤلاء أهله ، ماذا يعرفون من أمر فتاته ، وما حاول من قبل مرة أن يفض لهم أغلاق قلبه أو يقرأ عليهم سطراً من شبابه ؟ وهذا أبوه ، شيخ لا يؤمن بالحب ، ولا ينقاد لنزوات العاطفة ؛ وهو رباه ونشأه واختار له فيما اختار فتاة من ذوى قرباه ، فما ينتظر له زوجاً غيرها ولا لها زوجاً غيره . فمن ذا يشفع له عنده ؟ وهذا عمه ، وإنه لرجل جد وكفاح لا يرى الحياة إلا من الناحية الصلبة الجافة ، فما اليه مشتكى ، ولا فيه شفاعة ! ولقد تلقى الفتى عن أبيه — فيما تلقى — دروساً فى الشجاعة والصراحة معاً ، فكيف تخذله شجاعته ، وكيف يلتوى لسانه وهو يطلب الحياة لنفسه ؟ وفى قلب الفتى نار لو لفحت الشجر الأخضر لتركته هشيما ، وفى رأسه شعلة لو نفخت على السائل لتركته يغلى ويفور . وابتدأ الفيلسوف الذى فى رأسه يفرض الفروض ، ويأتى بالمقدمات ، ولكن إلى غير نتيجة

لقد ملك اللذة وأراد أن ينعم بها ، ولمس السعادة وأمل أن يحتويها ، ولكن فكرتى اللذة والسعادة هما اللتان ذهبتا بشجاعته وصراحته

ماذا فى السعادة غير اطمئنان الخاطر ، وهدوء الضمير ، وإشراق الحياة ، وابتهاج النفس ، والرضى بكل ما يجىء به القدر ؟ ذلك هو الايمان ، والشعور به هو اللذة . فلا تنشدهما من غير هذا السبيل

* * *

ونفخ الحب فى عزم الفتى ، ونفث من سحره فى لسانه ، فمضى بين الرجاء واليأس ينفض أمام أبيه جملة حاله . وكان أبوه قد قدّر حين رأى فى ابنه الذهول والصمت حيناً ، والانكباب على المطالعة حيناً آخر ، أن به شيئاً . وقالت له ذكريات شبابه : « ويحك أيها الشيخ ! إن فتاة قد سلبتك فتاك ، لأنه فقد النوع ، وإنه لشاب به من ثورة الفتاء ما بالمرجل يوقد تحته بنار من حجارة ، فأمسك عليك ولدك بزوج تربطه بها وتربطها به ... ! » ووعى الشيخ ما سمع . فلما أذن للفتى أن يكشف لأبيه عن صدره ، قال له : « يا بنى ! إن حكمة الشيوخ غير طيش الشباب . يا بنى ! إنه أنا الذى رباك وأنا الذى يريد أن يعيش فى تاريخك جيلاً آخر . عقلك أولاً ثم عاطفتك ، وغداً تهدأ هذه الثورة ...! » ولكن الثورة لم تهدأ بل زادت ضراماً ، وعاد الفتى إلى عمه يستعينه على رأى أبيه ، فما الأخ إلا صورة من أخيه ، ولما أرسل إلى أهلها قالوا : « حتى يرضى أهله »

وضاقت نفس الفتى بما رأى وسمع ، وما لبثت الفتاة أن سميت على غيره ، فأصبح الفتى يتوزعه الحب وقد أخفق فيه وصفرت منه يداه ، والكبرياء التى لا تطاوعه على أن ينقاد ، فصار همه همين ؛ وعض الحزن على قلبه فاستلبه من أيامه ، وخلفه يمشى بين الناس جسداً بلا روح . . . . !

وأحس الأب بمقدار قسوته على ولده ، على حين لم يكن يريد له إلا السعادة ، فانطلق يلتمس له الشفاء من أله ، ولكن أين له ما يريد وقد سميت الفتاة على غيره فخطبت ؟ . . .

وكان الأب فى انطلاقه يفتش عن السعادة لابنه ، قد ترك وراءه شبحاً يجلس إلى مدفئه فى زاوية من الحجرة وقد نشر أمامه ورقة لا يكاد يتبين من سطورها إلا سطراً أسود يضطرب أمام عينيه ، وكأنه لم يكن ينظر كلاماً مكتوباً بل شريطاً عريضاً أسود يمثل له حظه فى الحب . لقد وعاه من طول ما كرره ، ولكنه ما زال يقرأ ، ويعيد ما يقرأ ، كأن ألفاظه تمسح ببياضها هذا السواد المائل أمامه : « لقد تخليت عنى فى وقت أنا أحوج فيه إليك ، وقد كان بيننا ما كان . تخليت عنى ليعبث أهلى — بما لهم على من حق — فى مستقبلى . لقد أرغمونى حين ردوك »

ولما ارتد الأب خائباً ، وجد الابن قد أكلته الخيبة والتهمه اليأس ، فعاد يهمس بينه وبين نفسه : « ويلى ! لقد جنيت ! » ثم ابتدأ يلتمس لولده العزاء مما جنى عليه ، فقدر له أن يمضى أياما على شاطئ البحر ، عند الربيع الأزرق . هناك حيث يخلع الانسان همومه إذ يخلع ملابسه ، ويتحلل من أثقال المدنية وتقاليد الناس حين يرى نفسه كآدم وحواء قبل اتخاذ الثياب . وكان الفتى واسع الخيال دقيق الحس ، فآلمه أن يرى هذا الناس قد اجتمعوا ليقتسموا الصحة والعافية ، واللذة والسعادة ، وهو وحده يعيش فى جو بعيد عن كل ذلك ، هو جو قلبه ، وانصرم الصيف ، وما أفاد إلا هما على هم ، ووحشة كانت فى قلبه فعادت فى حسه وفى نفسه

وجلس الابن يقرأ — ذات ليلة — كتاباً فى تاريخ قدماء المصريين والأب ينصت ، وهو يتبين فى صوته رنين الأسى والحزن . فقال : إن لنا فى الشتاء لرحلة كما لنا فى الصيف رحلة . زيارة آثار أجدادنا القدماء . وطرب الشاب لهذه الفكرة الطارئة

* * *

وطوّفا ما طوفا والفتى فى نهاره رفيق أبيه ، وفى الليل صديق همومه

وجلس الفتى إلى نضد ، وقد مضى الليل إلا أقله يكتب إلى التى أحبها : « ذهب عقلى واستقر هواك . وهأنذا أطوف فى بلاد وقرى لم أنزل بها من قبل ، ولم يزرها أبى من قبل أيضاً . يظن أبى أننى أفرج عن نفسى ، وأرانى شريداً لأننى أرغم على ذلك إرغاماً . يؤمر ليطيع كالانسان الصناعى لا يدرى ماذا يقال ، ولا ماذا يُفعل ؛ وهم يسخرون من الانسانية إذ يسمونه الانسان . أبى يرى فى كل ذلك لذة ، أما أنا فلا أرى هنا ما يلذنى لأننى بعيد عنك . والآن وقد بلغنا أسوان بقى على أن أصف لك الخزان العظيم الذى يترك لأرض مصر جميعها فضلة ما عملك . إنه فى رأسى الآن يجيش ويضطرب ، وغداً كيف أراه أمام عينى ؟ سأذكرك هناك ، يا فتاتى ، وأذكرك . . . »

وعند انبثاق الفجر انفلت من الفندق ليضع بعض قلبه فى صندوق البريد

***

وعلى خزان اسوان سار مطمئناً ، وهو يعجب بما يرى ! عن يمينه طود من الماء ، وعن يساره وشاش الماء المنسكب ، أمواجاً تتلاطم ، كأنهما فى مضمار ، أيهما يبلغ الغاية أولاً ؟ وعلى سور الخزان المبنى من حجر الجرانيت ، وقف يتكئ على حاجز قصير هناك يطل منه على الماء يتدفق من فتحات الخزان حياة ، والخواطر تتدفق فى أعماقه شجواً حزيناً يبعث الألم . وأخذت الفتى روعة ما رأى وأحس كأن الماء الذى يتحرك فى أسفل يجذبه ليحمله إلى من يحب . ورأى الرشاش المتطاير تنعكس عليه أشعة الشمس فترسم عليه قوساً ذات ألوان جميلة ، كأن عروساً فى ثوب زفاف تتراءى له بين مرآتين ، ولكنه لم ير فيها إلا العروس التى فقد ، تبتعد بها الأقدار فى صحبة رجل غريب . ورأى الماء يتسرب من بين الصخور كما يتسلل القدر فى تاريخ إنسان ليضع فيه مأساة أو يصنع حادثة

ومضى الفتى يتخيل فيمعن فى الخيال ، والماء تحت عينيه يموج ويضطرب ويزأر متدفقاً مكتسحاً فى بطش وعنفوان ! فما يرى الفتى بين الموج والزبد إلا صورة واحدة : صورة الفتاة التى بعد بها عنه عنف القدر وسلطان التقاليد

ورجع الأب ليصحب ولده فيمودا ، ولكنه انطلق كالمجنون يعدو حين رأى ابنه يوشك أن يتردى . فما بلغ إلا ليشهد آخر مأساة للشاب تتلقفه الأمواج

يا يد الشيخ أنت التى دفعته الى هذه الهوة فما كان لك أن تنقذيه . . . !

يا تجارب الشيخوخة كم أنت قاسية ! لقد أردت أن ترعى السعادة فجنيت الشقاء . لقد كنت كبيرة فلم تفهمى لغة الشباب ، وكنت مادية فلم تفهمى حديث الروح ، وكنت صلبة فلم تعقلى كلمات القلب . هل أنت يا تجارب الشيخوخة إلا خرف الهرم ونكسة الانسانية . . ؟

ألا ليت الشباب وليت الهرم . . . ولكن ماذا يجدى ، ماذا يجدى ؟ ليت شعرى هل قدر للانسانية ألا تبلغ سعادتها إلا على جسر من الضحايا ؟ فياويح الشباب وياويح الهرم !

كامل محمود حبيب

درامة من اسخيلوس

٣ـ الفرس
Persae
للأستاذ دريني خشبة
تتمة

— ٧ —

« يظهر شبح دارا ويخاطب الجماعة »

— « أوه ! أنتم هنا يارفاق الصبى ولدات الشباب ! مرحى! لقد ابيضت نواصيكم ، وجلل هاماتكم وقار المشيب ! ماذا ؟ ! ما لكم واجمين هكذا ؟ أى شجو يعقد أساريركم ياسادات فارس ؟ ماذا أسمع ؟ هناك ! هناك فى جميع آفاق المملكة ؟ الجماهير المعززة تئن وتبكى ! ويح لكم يا رعاياى ؟ أية كارثة ؟ ! تكلموا ؟ إن قربان النحر الذى أسقيتم ثرى رمسى قد روى أعظمى وانتشت بحمياه نفسى ؟ لشد ما أيقظتنى أناشيدكم وأذكاركم تتغنونها على هذا القبر يا سادات ، وتتغنونها معكم مليكتى !؟ تكلموا ! تكلموا إذن ! فيم جؤاركم بى ، وصلاتكم من أجلى ، لأطوى الرحب إليكم من عالم الأشباح ؟ ! إن الآلهة ترنو إلى من بعد ، وإنها تكاد تتخطفنى ... لماذا تصمتون هكذا ؟ تكلموا وإلا فالويل لى من أرباب الظلمات ! ... »

— « لشد ما تفرق قلوبنا إذ نرى إلى هذه الهامة ! كيف السبيل إلى الكلام ؟ أى فزع يذوب كالموت فى فرائصنا ؟ »

— « ليفرخ روعكم ! إن صلاتكم الطيبة هى التى سمت بى إليكم ! فيم هذا الجزع الذى يسيطر عليكم ؟ وهذا الحزن لمه ! تكلموا ! البدار ، اختصروا ما استطعتم فانى عجلان ، والآلهة تحدجنى من أعماق الدار الآخرة ! »

— « نفرق أن تنبس أفواهنا بكلمة عما حاق بأعز الناس ! إن حبنا له ، وجزعنا عليه يمنعنا من أن نقول كلمة ! ... »

— « هذا دأبكم دائماً ... طالما كنتم تخافون من لا شىء إذن ، فتكلمى أنت يا من كنت شريكتى فى أهنأ حياة ؟ وأرجو أن توجزى ما استطعت . ! ما هذه الصيحات التى ترتفع من رعاياى فى البر والبحر ؟ ما لهم يبكون فى كل صوب ! »

— « مولاى دارا ! ؟ مليكى ! يا من ألفت مجد الوطن ،